عبدالوهاب المسيري *

الصهيونية في مائة عام (٤/٢)

(الصفحات ٨١- ١٠٤)

ملخّص

يهدف هذا المقال إلى الكشف عن حقيقة الصهيونية بأسلوب تحليلي تفسيري بمعزل عن الخطاب التآمري والتعبوي. والأسلوب التفسيري لا يعني رفض الواقع الموضوعي، بل يعني الجمع بين الموضوعية والذاتية، ويحاول المقال أن يطرد الأوهام التي تساور المهزومين بشأن الحركة الصهيونية من قوة وقدرة على التنبؤ.

ويتطرق المقال إلى تعريف الصهيونية والتاريخ اليهودي و وَهم الوحدة اليهودية وأسباب ظهور الصهيونية.

الحل الامبريالي للمسألة اليهودية

رغم تضافر كل العوامل يمكن القول إنه كان من الممكن للصهيونية أن تبقى في عالم الإمكانية، ولا تتحقق إن لم تتوفر لها الظروف التاريخية والحضارية المواتية. ونحن نعتقد أن الصهيونية قد تحركت من عالم الإمكانية إلى عالم التحقق؛ بسبب عنصرين أساسيين، واحد خاص بالمجتمع الغربي والآخر خاص بالجماعات اليهودية. هذان العنصران هما: ظاهرة الإمبريالية والمسألة اليهودية (التي تناولنا أسبابها فيما سبق). وهما عنصران منفصلان متصلان، فكلاهما هو نتاج تحديث العالم الغربي، كما أن الامبريالية الغربية هي التي ساهمت في نهاية الأمر في حل المسألة اليهودية (كما سنبين فيما بعد).

* - باحث مصري متخصّص في القضية الفلسطينية وتاريخ الصهيونية.

ولنبدأ بالإمبريالية الغربية باعتبارها النموذج الذي سيطر على هذه الحضارة وحرك جماهيرها وحكوماتها، وأدى في نهاية الأمر إلى ظهور المسألة اليهودية، وإلى ظهور الحركة الصهيونية. ونحن نذهب إلى وجود ما نسميه «المسألة الغربية»، وهي الإشكالية الناجمة عن تفجر رغبات الإنسان الغربي (الاستهلاكية المادية) وتصاعدها المتزايد إلى درجة تتجاوز مصادر أوروبا الطبيعية ومصادر العالم بأسره. وقد طرح العالم الغربي حلا إمبرياليًا لمسألته الغربية هذه يتلخص في تحويل العالم بأسره إلى مادة استعمالية يوظفها لصالحه، وفي إطار هذا قام بتصدير كل مشاكله المادية والمعنوية الناجمة عن تزايد استهلاكيته وشراهته، فمشكلة الرغبة المتزايدة في الاستهلاك وفي رفع مستوى المعيشة بقدر يتجاوز إمكانات أوروبا الطبيعية المادية ثم معالجتها عن طريق الاستعمار التقليدي، أي تجييش الجيوش، وإرسالها لغزو آسيا وأفريقيا، وقمع أهلها وتحويلهم إلى عمالة رخيصة، وتحويل بلادهم إلى مصدر للمواد الخام الرخيصة وسوق للبضائع البائرة، الأمر الذي ضمن تدفق فائض القيمة إلى بلاد أوروبا، وحقق لشعوبها الرفاهية ولمجتمعاتها الأمن الاجتماعي. أما مشكلة الفائض البشري (أي العناصر القلقة التي تهدد الأمن الاجتماعي ، مثل: المجرمين والمنشقين دينيًا وأعضاء الأقليات غير المرغوب فيهم والعاطلين عن العمل والعناصر الفاشلة التي لم يمكنها تحقيق أي حراك اجتماعي) فتمت معالجتها عن طريق تصدير هذا الفائض وتوطينه في آسيا أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية في جيوب استيطانية إحلالية.

وحينما طرحت المسألة اليهودية نفسها على الإنسان الغربي فكر في حلها بطبيعة الحال من خلال الإطار المعرفي المهيمن عليه، ومن خلال مقولاته الحضارية والإدراكية التي كان من أهمها الإمبريالية وتصور اليهود باعتبارهم جماعة وظيفية وشعبًا عضويًا منبوذًا؛ ولذا طرح حلا إمبرياليًا وظيفيًا يتلخص في إخراج اليهود من الغرب وتوظيفهم في خدمته (فالعالم بأسره مادة استعمالية توظف لصالح الغرب، وكان اليهود في الوجدان

الديني الغربي في حالة خروج Exodus دائمة من بابل ومن مصر)، وقد تم ذلك عن طريق ربط المسألة اليهودية بالمسألة الشرقية (أي وضع الإمبراطورية العثمانية المتردية (ورغبة الغرب في أن يرثها)، فيقوم الغرب بنقل الفائض البشري اليهودي الذي لا وظيفة له في الغرب إلى منطقة إستراتيجية في آسيا وأفريقيا (هي فلسطين) تطل على البحرين الأبيض والأحمر وفي قلب العالم العربي والإسلامي والدولة العثمانية، حيث يؤسس دولة استيطانية وظيفية تقوم بوظيفة حيوية وهي الدفاع عن المصالح الغربية في المنطقة؛ نظير أن يقوم الغرب بالدفاع عن سكانها وضمان رفاهيتهم وبقائهم واستمرارهم. ولأن العنصر البشري المستورد غريب فإنه سيظل في حال احتكاك مع سكان المنطقة، وسيضمن الغرب ولاءه الدائم له، وبذلك يتم التخلص من جماعة وظيفية كانت تعمل بالتجارة والربا وأصبحت بلا وظيفة داخل الحضارة الغربية من خلال تحويلها إلى جماعة وظيفية تعمل بالاستيطان والقتال في خدمة الحضارة الغربية خارج حدودها وداخل إطار الدولة الوظيفية التي لا تختلف في سماتها الأساسية عن الجماعة الوظيفية.

وقد أدرك بعض المثقفين اليهود في شرق أوروبا كل هذه الحقائق الصهيونية الكامنة في الحضارة الغربية (الفكر العنصري ـ وضع اليهود داخل الحضارة الغربية كجماعة وظيفية وشعب عضوي منبوذ ـ الإمبريالية باعتبارها أهم الظواهر في الحضارة الغربية الحديثة والآلية الكبرى لمن يود تحقيق أي مشروع)؛ ولذا مع تعثر التحديث في شرق أوروبا ومع إغلاق باب الحراك الاجتماعي أمامهم بدأوا يفكرون في الحل الإمبريالي للمسألة اليهودية، أي نقل اليهود إلى إحدى المناطق خارج أوروبا في أحد الأماكن في آسيا وأفريقيا ليوطنوا هناك، ولينشئوا وطنًا قوميًا لهم، وبذلك يريحون أوروبا منهم، ويستريحون هم بدورهم منها، فهي التي نبذتهم وحولتهم إلى فائض بشري، ويحققون داخل التشكيل الإمبريالي الغربي ما فشلوا في تحقيقه داخل التشكيل الحضاري الغربي.

ولكن هؤلاء المثقفين كانوا يعرفون أنه لا يمكن ترشيحهم لهذا الحل الإمبريالي إلا

بأن يتحولوا إلى شعب (عضوي) فولك Volk «مثل كل الشعوب» (كما جاء في الكتابات الصهيونية). وأن مثل هذا الشعب، من منظور غربي، هو وحده الذي له الحق في أرض وفي وطن. ولكنهم كانوا عليهم الخروج من أوروبا، ولذا كان مفهوم الشعب العضوي المنبوذ هو المخرج، فهو يوفر لهم حق الشعوب العضوية في أرض وفي وطن، وفي الوقت ذاته يرضي أوروبا، لأن هذا الوطن يوجد خارجها مما يعني خروج الشعب العضوي المنبوذ من اوروبا! ومن هنا ظهر تعريف الصهيونية بأنها القومية اليهودية التي تتحقق «هناك» في فلسطين وليس هنا في أوروبا.

ومما ساعد على هذا الاتجاه ما يسمى بمفهوم «حب صهيون»، وهو حب يعبر عن نفسه ـ كما أسلفنا ـ من خلال الصلاة والتجارب والطقوس الدينية المختلفة، وفي أحيان نادرة على شكل الذهاب إلى فلسطين للعيش فيها بغرض التعبد وحسب؛ ولذا فإنه لا تربطه رابطة كبيرة بالاستيطان الصهيوني، ومع هذا استفاد الصهاينة من هذا المفهوم في صياغة تعريفهم.

وثمة عنصر آخر داخل اليهودية ساعد الصهاينة كثيرًا، وهو ما نسميه «التيار الحلولي داخل اليهودية». والحلولية كما نعرفها هي حلول الإله المفارق المتجاوز للطبيعة والتاريخ في مخلوقاته داخل الزمان إلى أن يصبح جزءاً منها، بحيث لا يمكن التفريق بين المخلوق والخالق ويتم «تطبيع» الإله (أي جعله ظاهرة طبيعية زمنية مادية)، ويتم تأليه المخلوقات الزمنية. وهذا هو ما تم في إطار التيار الحلولي اليهودي، إذ حل إله اليهود فيهم وفي أرضهم فأصبحوا كيانًا مقدسًا، وأصبحت أراضيهم أرضًا مقدسة، وهو ما أدى إلى وجود علاقة مساواة بين الخالق من جهة، ومن جهة أخرى الشعب اليهودي والأرض اليهودية! أو كما يقول بن جوريون: «لقد اختار الإله الشعب اليهودي، واختار الشعب اليهودي الإله»، وهي أيضًا علاقة ترادف؛ ولذا أمكن لجابوتنسكي أن يقول إنه يتعبد لإلهه الشعب اليهودي، ولموشيه ديان أن يقول إن إلهه هو أرض إسرائيل.

والحلولية اليهودية لا تختلف كثيراً عن الأديان الوثنية الحلولية؛ حيث يقتصر الدين والإله على شعب واحد دون غيره من الشعوب.

واليهودية من هذا المنظور الحلولي قومية دينية مقدسة تمزج الوجود التاريخي الزمني بالتصور الديني المثالي؛ ولذا نجد أن الملكوت السماوي وآخر الأيام يكتسبان في اليهودية الحلولية طابعًا قوميًا، فهما مرتبطان بمجيء الماشيَّح (المسيح المخلص اليهودي الذي سيأتي في آخر الأيام ليجمع شتات شعبه اليهودي ويقوده إلى صهيون أو أرض الميعاد ليؤسس مملكته هناك).

ومما ساعد على تأكيد مفهوم القومية اليهودية بالمعنى الزمني العلماني أن الشريعة اليهودية عرفت اليهودي بأنه من ولد لأم يهودية، أو تهود، أي أنها لا تعرف اليهودية على أساس الإيمان بالعقيدة وحسب (كما هو الحال بالنسبة للإسلام والمسيحية على سبيل المثال) وإنما على أساس الجينات والوراثة، وهي في هذا لا تختلف عن تعريف القومية السائد في الغرب في نهاية القرن التاسع عشر.

السمات الأساسية للاستعمار الصهيوني

بعد أن تناولنا بعض الأسباب العامة والخاصة التي أدت إلى ظهور الصهيونية، وقبل أن نقوم بطرح تعريفنا، فلنحاول حصر بعض سماتها الأساسية. والسمة الأساسية للصهيونية أنها حركة استعمارية، وجزء لا يتجزأ من التشكيل الاستعماري الغربي. وقد عرف الصهاينة من البداية أن أي مشروع، بما في ذلك المشروع الصهيوني، لا يمكن له أن يتحقق إلا من خلال مساندة القوى الإمبريالية. وقد وصف هرتزل مشروع الصهيونية بأنه «فكرة استعمارية» وهو محق تمامًا في ذلك، فالصهيونية مدينة للإمبريالية الغربية بفكرها وقوتها وتحولها إلى حقيقة واقعة في المنطقة العربية، والدولة الصهيونية إن هي إلا امتداد لهذه الإمبريالية وتتسم بكل صفاتها.

وقد توجه هرتزل إلى انجلترا لتحقيق مشروعه الاستعماري؛ لأنه أدرك (كما جاء في خطاب ألقاه في لندن في عام ١٩٨١) أن الإنجليز هم أول من اعترفوا بضرورة التوسع الاستعماري في العالم الحديث؛ فبذلك يرفرف علم بريطانيا العظمى عبر البحار؛ ولذا توقع الزعيم الصهيوني أنه سيجد كثيرًا من الإعجاب لرؤيته الصهيونية؛ لأن «الفكرة الصهيونية» التي «تعتبر فكرة استعمارية، لا بد أن تلقى الفهم في انجلترا بسهولة وبسرعة».

ولكن يجب ألا نقنع بدراسة الاستعمار الصهيوني بوصفه شكلا من أشكال الإمبريالية الغربية على وجه العموم فحسب، وإنما يجب أن ندرس أي خصوصية يتسم بها حتى نحيط به في جوانبه العامة والخاصة:

١ ـ لعل السمة الأولى الخاصة التي تميز الاستعمار الصهيوني هي أنه استعمار استيطاني (أو سكاني). وقد أشرنا من قبل إلى أن المجتمعات الغربية، انطلاقًا من رؤيتها الإمبريالية، كانت تحاول حل مشكلاتها عن طريق تصديرها إلى أفريقيا وآسيا. فعلى سبيل المثال يمكن حل مشكلة تكدس السلع عن طريق السوق الهندية، ويمكن أيضًا حل مشكلة المواد الخام اللازمة للمصانع البريطانية عن طريق تحويل مصر إلى مزرعة قطن. كما يمكن حل مشكلة الفائض البشري أو المسألة اليهودية بطريقة مماثلة، أي عن طريق تصديرها إلى الشرق (فلسطين مثلا). وإذا كان الاستعمار التقليدي يأخذ شكل جيش يقهر الأمة المستضعفة ويحتلها ليستغل إمكاناتها الاقتصادية والبشرية لصالح البلد الأوروبي الغازي، فالاستعمار الاستيطاني يأخذ شكل نقل مواطنين أوروبيين من بلادهم إلى البلد الجديد ليعشيوا فيه وليتخذوه وطنًا جديدًا لهم، كما كان الحال مع المستوطنين الفرنسيين في الجزائر والمستوطنين البيض في روديسيا.

وسنجد نفس الشيء ينطبق على الجيب الاستعماري الاستيطاني الصهيوني، فهو كان يقوم باستيعاب الفائض البشري اليهودي، أو الكتلة البشرية الغربية التي نبذها العالم

الغربي، وفي الوقت ذاته أصبح قاعدة أساسية للإمبريالية الغربية يمكنها أن تنطلق معها للهيمنة على المنطقة. ويجب أن نشير إلى سمة خاصة بالاستعمار الاستيطاني الصهيوني، وهي أنه ليس مشروعًا اقتصاديًا، وإنما مشروع عسكري أسسه الغرب؛ لتحقيق مكاسب إستراتيجية باعتباره قاعدة عسكرية تخدم مصالحه الأمنية والاقتصادية، وهو ما ييسر له عملية الهيمنة على المنطقة. فالمكاسب الاقتصادية التي يحققها الراعي الإمبريالي لا تأتي مباشرة من الجيب الصهيوني وإنما من خلال استخدامه كأداة. فكأن المردود المباشر إستراتيجي، والمردود غير المباشر اقتصادي. ومن هنا تأتي المساعدات الهائلة التي تصب فيه. لكل هذا لا يخضع هذا الجيب لمعايير الجدوى الاقتصادي، ولا بد أن يمول من الخارج (الخارج هو الراعي الإمبريالي بالدرجة الأولى، وإن كانت «الدياسبورا» اليهودية الثرية [أي الأثرياء من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم] يقومون بالمساهمة في الدعم المالي للجيب الاستيطاني. ولكن مع تزايد مصاريف الدعم تضاءلت نسبة وأهمية دعم يهود العالم).

٢- السمة الثانية للاستعمار الاستيطاني الصهيوني أنه استعمار إحلالي. والاستعمار الاستيطاني الإحلالي يتطلب أن تقوم الكتلة البشرية الغربية الوافدة بإبادة السكان الأصليين أو طردهم أو استعبادهم، أو خليط من كل هذه الأمور (كما حدث في أمريكا الشمالية وفي فلسطين). وتستند عمليات الطرد والإبادة إلى مجموعة من الأفكار تشكل في جماعها ما نسميه أسطورة الاستعمار الاستيطاني الغربي.

أ ـ ينطلق الاستعمار الاسيتطاني بشكل عام من الإنكار الكامل للتاريخ بشكل متطرف، وإعلان نهايته. ويزداد الإنكار حدة وعنفًا في حالة المجتمعات الاستيطانية الإحلالية، وهذا الإنكار يأخذ شكلين: إنكار تاريخ المستوطنين في بلادهم الأصلية، وإنكار تاريخ سكان البلد التي يستوطنها أعضاء الكتلة البشرية الوافدة.

ب ـ تحاول أسطورة الاستيطان الغربية أن تهمش السكان الأصليين وتنعتهم بنعوت سلبية كثيرة، فهم قليلو العدد متخلفون يفتقرون إلى الفنون والعلوم والمهارات المختلفة،

يهملون الثروات الطبيعية الكامنة في الأرض. وهم عادة مجـرد رحالـة لا يـستقرون في مكان واحد، فأعضاؤه جزء لا يتجزأ من الطبيعة ومن ثم لا حقوق لهم. لكل هـذا فـإن وجود مثل هؤلاء الناس هو وجود عرضي ومن الضروري وضع حل جـذري ونهـائي للمشكلة الديموجغرافيـة، أي مـشكلة وجـود الـسكان الأصـليين في الأرض العـذراء، وضرورة اجتثاث شأفتهم تمامًا.

واسطورة الاستيطان الصهيونية تنظر للوجود الفلسطيني في فلـسطين باعتبـاره أمـرًا عرضيًا هامشيًا، والاعتذاريات الصهيونية مليئة بالحديث عن فلسطين باعتبارهـا أرضًـا مهجورة مهملة، وكثيرًا ما يتحدث الصهاينة عن الفلسطينيين كما لـو كـانوا جـزءاً مـن الطبيعة بلا تاريخ. وكل هذا ينتهي بطبيعة الحال بتأكيد حق اليهـود المطلـق في فلـسطين (ومن هنا قانون العودة) وينكرون هذا الحـق علـى الفلـسطينيين (ومـن هنـا مخيمـات اللاجئين). وتحاول الحركة الصهيونية وضع حل نهائي للمشكلة الديموجغرافيـة؛ فقامـت أحيانا بالإبادة (دير ياسين ـ كفر قاسم). ولكن الطـرد كـان الـشكل الأساسـي. وبعـد اتفاقيات أسلو أخذ الحل النهائي شكل عزل الـسكان الأصـليين داخـل مجموعـة مـن القرى والمدن ومحاصرتهم بالقوات العسكرية الإسرائيلية والطرق الالتفافية.

ومن المعروف أن موقف المستوطنين البيض من السكان الأصليين يختلف من بلد إلى آخر، ففي أمريكا اللاتينية، كان هـدف الاسـتعمار الاسـتيطاني هـو اسـتغلال الأرض وسكانها عن طريق إنشاء المزارع الكبيرة التي يقوم السكان الأصليون بزراعتها لتحقيق فائض القيمة من خلالهم. أما في الولايات المتحدة فكان المستوطنون البيوريستان يبغون الحصول على الأرض فقط، لإنشاء مجتمع جديد، فكان لا بد من طرد ثم إبادة الـسكان وإحلال عنصر بشري جديد محل العنصر القديم. وكانـت جنـوب أفريقيـا في الـسنوات الأولى من هذا النوع الإحلالي، فنجد أن المستوطنين البيض استولوا على خير أراضـيها وطردوا السكان الأصليين منها. ولكن بمرور الزمن طرأت تغيرات بنيوية علـى الجيـب الاستيطاني، وأصبح تحقيق فائض القيمة واستغلال الـسكان الأصـليين أحـد الأهـداف

الأساسية؛ ولذا تحول الجيب الغربي في جنوب أفريقيا إلى استعمار استيطاني يقوم بتجميع السود في أماكن عمل ومدن مستقلة (بانتوستان) تقع خارج حدود المناطق والمدن البيضاء، ولكنها تقع بالقرب منها، حتى يتسنى للعمال السود «الهجرة» اليومية داخل المناطق البيضاء للعمل فيها.

وكان الصهاينة يطمعون في الحصول على أرض لا يقطنها أحد (أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض، على حد قول الشعار الصهيوني) حتى يتسنى لهم تنفيذ المخطط الصهيوني. ولكن مثل هذه الأرض لا توجد إلا في القمر (على حد قول حنا أرنت)، وكانت يتحتم على الاستعمار الصهيوني أن يستولي على قطعة أرض ثم يفرغها من سكانها عن طريق العنف، أي أن طرد الفلسطينيين جزء عضوي من الرؤية والممارسة الصهيونية. ولا تزال هذه هي السمة الأساسية للاستعمار الصهيوني في فلسطين، إنه استعمار استيطاني إحلالي، وإحلاليته هي مصدر «صهيونيته». وإحلالية الصهيونية تتضح في موقف الدولة الصهيونية من سكان الضفة الغربية، فهي على استعداد لإعطائهم نوعًا من الاستقلال الذاتي، وعلى الرغم من أنه قسط ضعيف للغاية من الاستقلال فإنه لا يمتد بأية صورة إلى الأرض الفلسطينية، مطمع الصهاينة وهدف المخطط الصهيوني. والاستعمار الصهيوني بدأ يفقد طبيعته الإحلالية بعد عام ١٩٦٧، واكتسب بدلا من ذلك شكلا مماثلا للاستعمار الاستيطاني في جنوب أفريقيا، الذي يقوم على استغلال الأرض والسكان معًا. ولكن تجب الإشارة إلى أن ثمة رفضًا عميقًا لهذا التحول بين الصهاينة؛ لأنه يعني أن «الدولة اليهودية» ستفقد هويتها الخالصة.

٣ـ يتسم الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الصهيوني بأنه استعمار توسعي، ويعود هذا إلى العناصر التالية:

أ ـ نبتت الصهيونية في تربة إمبريالية غربية ترى أن العالم إن هو إلا مادة يغزوها الإنسان ويوظفها لصالحه. وعملية الغزو هذه عملية تستمر إلى ما لا نهاية، ذلك أن عقيدة التقدم علّمت الإنسان الغربي أن التقدم لا نهائي، وأن المادة التي سيقوم بغزوها

وتوظيفها هي الأخرى لا متناهية.

ب ـ طرحت الصهيونية نفسها على أنها ستقيم دولة الشعب اليهودي بأسره، وهو ما يعني أن عملية نقل الكتلة البشرية الوافدة يمكن أن تستمر إلى أن يتم نقل كل يهود العالم، وهو ما يعني الشره المستمر للأراضي.

ج ـ أحد عناصر الثالوث الحلولي الصهيوني هو الأرض، بل إن بعض الاتجاهات الصهيونية تعطيه أولوية على كل العناصر الأخرى، ولكن حدود هذه الأرض غير معروفة المعالم على الإطلاق، ولم يتم الاتفاق بشأنها.

د ـ الأرض هي المصدر الأساسي لتدفق فائض القيمة على الكيان الاستيطاني (وبخاصة قبل عام ١٩٤٨)، وهي القاعدة التي سيؤسس عليها الجيب الاستيطاني، وكلما اتسعت هذه القاعدة ازداد تدفق فائض القيمة، وازداد الجيب الصهيوني قوة.

ورغم أن الظروف السائدة بعد حرب ١٩٥٦ لم تسمح بترسيخ السيطرة الصهيونية على المناطق المحتلة في غزة وسيناء، فإن حرب ١٩٦٧ ـ وما ترتب عليها من احتلالها الأراضي العربية في سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة ـ شكلت منعطفًا بارزًا في تاريخ التوسع الصهيوني باعتبار أن الكيان الصهيوني حقق أقصى اتساع له، ووصل إلى الحدود الآمنة.

ولأن الجيب الصهيوني مرتبط بيهود «الشتات» ـ على الأقل نظريا ـ فلن يتمكن قط من تحقيق أي نوع من أنواع الاستقرار أو التحدد، بيد أنه ينبغي ألا نتصور أن إسرائيل تتوسع بسبب يهود الشتات فحسب، أو بسبب رؤيتها «القومية الدينية»؛ لأن التوسع الصهيوني له جوانبه الاقتصادية الواضحة؛ لأنه يحقق الكثير من المكاسب المادية للدولة الصهيونية، مثل ضم حقول البترول في سيناء والأراضي الفلسطينية التي تساعد العدو على التنمية الاقتصادية. وتشير الدراسات الأخيرة إلى أن اعتماد الاقتصاد الإسرائيلي على الضفة الغربية أصبح كبيرًا لدرجة يصعب معها تخيله منفصلا عن سوق الضفة الغربية وعمالتها. ولكن تلك الجوانب الاقتصادية والاستراتيجية من الاستعمار

الصهيوني ليست مقصورة عليه، وإنما هي سمات يشترك فيها مع أنماط الاستعمار الأخرى، واهتمامنا في السياق الحالي ينصبُّ على الجوانب السياسية والاقتصادية الفردية للتوسع الصهيوني، ويهود «الشتات» ـ مفهومًا وحقيقة ـ شيء فريد وخاص بالاستيطان الصهيوني يميزه عما سواه.

٤- من أهم سمات الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الصهيوني أنه استعمار عميل تابع للاستعمار الغربي، وفي تصورنا أن الحل الإمبريالي للمسألة اليهودية يتجسد فيما نسميه «الدولة الوظيفية»، وهي إعادة إنتاج لظاهرة الجماعة اليهودية الوظيفية في العصر الحديث على هيئة دولة؛ ولذا ليس من الغريب أن نجد أن هذه الدولة الوظيفية تتسم بمعظم إن لم يكن كل ـ سمات الجماعة الوظيفية؛ فقد استورد الاستعمار الغربي سكانها من خارج المنطقة، وغرسهم غرسًا في العالم العربي، ثم عرفها في ضوء وظيفتها الاستيطانية والقتالية، وهي تدين بالولاء لراعيها الإمبريالي، تدافع عن مصالحه نظير أن يدافع هو عن بقائها وأمنها، ويضمن لمستوطنيها مستوى معيشيًا مرتفعًا.

وعلاقة الدولة الوظيفية بالإمبريالية علاقة نفعية؛ فالراعي الإمبريالي يدعمها طالما لعبت دورها الاستيطاني وأدت وظيفتها القتالية، وهي دولة منعزلة عن وسطها العربي، غير متجذرة في المنطقة؛ فهي في الشرق العربي وليست منه، منعزلة عن الزمان والمكان. وحيث إن السكان الأصليين يقاومون وجودها ـ كما هو متوقع منهم ـ تحولت إلى «جيتو» مسلح؛ ولذا كان «وايزمان» يصر دائمًا على أن ينظر إلى مشروع الاستيطان الصهيوني في ضوء المصالح الإمبريالية، وليس في ضوء الرؤى الإنجيلية أو التاريخ اليهودي. وقد كتب في تاريخ لا حق أنه لو لم توجد فلسطين لكان من الضروري خلقها من أجل مصلحة الإمبريالية.

وقد ظل هذا هو جوهر خطاب وايزمان، إذ أكد أن انجلترا إن وافقت على منحنا فلسطين فإنها ستحصل على سند فعال؛ أي ستصبح الدولة الصهيونية قاعدة رخيصة للإمبراطورية البريطانية وأول خط دفاع لها، بلجيكا آسيوية ولا سيما فيما يتعلق بقناة السويس.

وبعد صدور وعد بلفور بعدة سنوات صرح «ماكس نوردو» في خطاب لـه في لنـدن في ١٦ يونيه ١٩٢٠ بأنه يرى أن الدولة الصهيونية ستكون «بلدًا تحت وصـاية بريطانيـا العظمى» وأن اليهود «سيقفون حراسًا على طول الطريق الذي تحف به المخـاطر، ويمتـد عبر الشرقين (الأدنى والأوسط) حتى حدود الهند».

وقد عرض «ناحوم جولدمان» القضية بشكل دقيق للغاية عام ١٩٤٧ في خطاب له ألقاه في مونتريال بكندا قال فيه: «كـان بإمكـان اليهـود أن يحـصلوا علـى أوغنـدا أو مدغشقر أو غيرهما، لينشئوا هناك وطنًا قوميًـا لهـم، ولكـن اليهـود لا يريـدون علـى الإطلاق سوى فلسطين، لا لاعتبارات دينية، أو بسبب إشارة التوارة إلى فلـسطين، ولا لأن مياه البحر الميت تستطيع أن تعطي عن طريق التبخر ما قيمتـه خمـسة آلاف مليـار دولار من المعادن والأملاح، ولا لأن تربة فلسطين الجوفية ـ كما يقولون ـ تحتوي على كميات من البترول تزيد على احتياطيّة في الأمريكتين؛ بـل لأن فلـسطين هـي ملتقـى الطرق بين أوروبا وآسيا وأفريقيا، ولأنها المركز الحقيقي للقوة السياسية العليـا، والمركـز العسكري الاستراتيجي للسيطرة على العالم».

إن الدولة الصهيونية لـن يـتم تأسيـسها لاعتبـارات دينيـة عاطفيـة ولا لأسـباب استثمارية مألوفة؛ فهي لن تنتج سلعًا بعينـها، ولـن تقـدم فرصًـا للاسـتثمار أو سـوقًا لتصريف السلع أو مصدرًا للمواد الخام والمحاصيل الزراعية، وإنما سيتم تأسيـسها لأنهـا ستقدم شيئًا مختلفًا ومغايرًا وثمينًا؛ ودورًا استراتيجيًا يؤمّن سـيطرة الغـرب علـى العـالم، وهو دور سيكون له مردود اقتصادي دون شك، ولكنه غير مباشر.

ورغم مرور عشرات السنين فإن الدولـة الوظيفيـة لا تـزال هـي الإطـار المرجعـي الثابت، الذي يصدر عنه الخطاب الصهيوني؛ سواء في العالم الغربي أم في إسرائيل أم بـين المنظمات الصهيونية في العـالم. ففـي مقـال لـه بعنـوان «مجتمـع يتغـذى علـى الهبـات الخارجية» بيّن الصحفي الإسرائيلي ب. سبير في عل همـشمار (٢٩ أبريـل ١٩٦٨) أن إسرائيل قد جعلت من جيشها «الذراع المـستقبلية المحتملـة للولايـات المتحـدة» فهـي

خدمة حربية كامنة أي جاهزة على أهبة الاستعداد لتأدية الخدمات في أي وقت. ووصف المفكر الإسرائيلي يشعياهو الإسرائيليين بأنهم «كلاب حراسة للمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط»، وأضاف: «ويتعلق بقاؤنا بقدرتنا على القيام بهذه المهمة». وقد طور الصحفي الإسرائيلي «عاموس كينان» هذه الصورة المجازية المثيرة، وجعلها أكثر حدة وإثارة؛ إذ وصف (إسرائيل) بأنها «كلب حراسة رأسه في واشنطن، وذيله في القدس، وهي كلب قوي لكنه يحتاج إلى حماية».

أما يعقوب ميريدور وزير التخطيط والتنسيق الاقتصادي (١٩٨٢ – ١٩٨٤) فقد قال في حديث له للإذاعة التابعة للجيش الأمريكي: «إنه لولا وجود إسرائيل كقاعدة ومنطقة نفوذ وحليف للولايات المتحدة لاضطرت الأخيرة إلى بناء عشرات حاملات الطائرات». وفي المقال الذي سبقت الإشارة إليه يشير الصحفي الإسرائيلي سبير إلى أن «الأمريكيين يدفعون لنا؛ لأنهم يريدون أن تكون لهم دولة تابعة مجهزة بأفضل الأسلحة والجنود» ووصفها بأنها «حاملة طائرات عليها أربعة ملايين نسمة في موقع استراتيجي فريد من نوعه، قريب من الاتحاد السوفييتي وقريب من أوروبا الشرقية وقريب من حقول النفط».

وثمة موضوع آخر يتكرر بصفة منتظمة في كتابات المفكرين والزعماء الصهاينة، هو أن يهودية الدولة التي ستنشأ على أرض فلسطين هي الضمان الأكيد لولائها وعمالتها للقوى الاستعمارية؛ فقد كان نوردو على سبيل المثال ـ يرى أن بريطانيا مهددة من الاتحاد السوفييتي، وبسبب ظهور القومية العربية وتطلعات العرب نحو الوحدة، وبيَّن أن العامل الأخير بخاصة سيعرض سيطرة بريطانيا على قناة السويس للخطر؛ ولذا أكد نوردو أن وجود حليف موثوق به أمر يجب أن يلقى الترحيب؛ فالصهيونية تعرض أن تكون هذا الحليف بشرط أن تمنحها بريطانيا الفرصة لأن تكوَّن دولة يهودية قوية في أرض الآباء.

وأكد «فلاديمير جابوتنسكي» أهمية فلسطين من وجهة نظر المصالح الإمبريالية

البريطانية، التي عدها «حقيقة بديهية معروفة». بيد أن هذه الحقيقة تستند إلى «شرط مهم، وهو أن فلسطين يجب ألا تظل بلداً عربيًا»، فمن رأيه «أن ثمة عيبًا أساسيًا في كل معاقل انجلترا في البحر المتوسط» هو أنها جميعا «آهلة بالسكان الذين لهم مراكز جذب قومية مختلفة» يتوجهون إليها «بشكل عضوي لا يمكن علاجه». فكل هؤلاء السكان ـ إن عاجلا أو آجلا ـ سيسعون للحصول على استقلالهم مبتعدين بذلك عن انجلترا، وسينطبق هذا القانون على عرب فلسطين الذين سيدخلون فلك المصير العربي (اتحاد الدول العربية) ، وإزالة كل أثر من آثار النفوذ الأوربي». وقد قارن جابوتنسكي بين هذه الصورة السلبية لفلسطين العربية ـ التي تنتمي إلى عالم عربي موحد ـ وصورة فلسطين اليهودية التي لا تنتمي إلى المنطقة والموالية بشكل دائم لبريطانيا، وقد استخدم وايزمان الحجة نفسها حين حذر القوى الاستعمارية الغربية من الاعتماد على «هذا الولاء العربي المشكوك في أمره». ثم قال: «إن الحركة العربية تقود المرء للاعتقاد بأنها مناهضة لأوروبا؛ ولذا يجب الاعتماد على اليهود لضمان وجود عنصر موال للغرب».

٥- إضافة لكل السمات السابقة، هناك سمة أخيرة تهمنا كثيرًا في كفاحنا ضد الغزاة، وتنبع هذه الخصوصية من عنصرين أساسيين:

أ – فشل الجيب الاستيطاني الإحلالي الصهيوني في إبادة السكان الأصليين الذي يعود للأسباب التالية:

* يتكون الفلسطينيون من جماعة بشرية موحدة لها تاريخ طويل وتراث مركب، وهي جماعة في غاية التركيب والوعي، قادرة على استخدام كل الأسلحة الممكنة بما في ذلك الإعلام، ومثل هذه الكتلة ليست سلبية، تجلس في مكانها دون حراك، بينما يقوم عدوها بذبحها ذبح الشاه.

* منذ نهاية القرن التاسع عشر (تاريخ الاستيطان الصهيوني) أصبح العالم أصغر في حجمه وأكثر اتصالا بسبب وسائل المواصلات ووصول الإعلام إلى كل أرجائه، وقد تزايدت هذه العملية، وهو ما يجعل عمليات الإبادة أمرًا مستحيلا؛ فهي عادة ما تتم

وراء ستار كثيف من الصمت حتى لا يحتج أحد.

* توجد فلسطين في وسط العالم القديم، ومن ثَمَّ يصعب إبادة سكانها.

يحيط بالفلسطينيين دول عربية تضم جماهير متعاطفة مع الفلسطينيين وقضيتهم، وتزودهم بالعون.

ب ـ تزايد عدد السكان الأصليين وتصاعد كفاءتهم.

نجم عن فشل الجيب الصهيوني في تصفية السكان الأصليين عدة نتائج من أهمها ما يسمى «المشكلة الديموجرافية (السكانية)»؛ أي تزايد عدد الفلسطينيين بدرجة كبيرة، وهو ما يهدد الطابع اليهودي الإحلالي لهذا الجيب. والفلسطينيون لا يتزايدون في العدد وحسب، وإنما تزداد نسبة المتعلمين بينهم، ويتحسن أداؤهم وتتزايد مقاومتهم يومًا بعد يوم.

وقد فاقم من هذه المشكلة الديموجرافية عنصران: جفاف ينابيع المادة البشرية الاستيطانية (خاصة بعد الهجرة السوفييتية الأخيرة، واضعين في اعتبارنا أن يهود العالم الغربي لا يهاجرون قط) وضم الجيب الصهيوني للضفة الغربية وغزة عام ١٩٦٧ اللتين تتسمان بكثافة بشرية عربية.

كل هذا أدى إلى وضوح زيف الافتراض الصهيوني المبدئي أن فلسطين أرض بلا شعب، وهو ما يعني أن فرض الأسطورة الصهيونية على الواقع يحتاج إلى مزيد من العنف، ولكن العنف لا يؤدي إلى تخفيف وطأة الهاجس الأمني؛ فالإسرائيلي يعيش في خوف دائم من العرب، وهو محقٌّ في خوفه هذا؛ فقد اغتصب أرضهم وشردهم، وهو يعلم أنهم لن يستسلموا، ولن يقبلوا وضعهم هذا. ولذا نجد أن كل اتفاقيات «السلام» اتفاقيات أمنية تهدف بالدرجة الأولى لتحقيق أمن إسرائيل (هذا الشيء المستحيل).

ولا شك أن الإسرائيليين يعرفون مصير ممالك الفرنجة، كما يعرفون أن الجيوب الاستيطانية الإحلالية التي قدّر لها البقاء (مثل أمريكا الشمالية وأستراليا) نجحت لأنها أبادت السكان الأصليين . أما تلك التي لم تنجح في ذلك (مثل الجزائر وأنجولا وجنوب أفريقيا)فقد تم تصفيتها. وهو يعرف أنه لا يوجد أي سبب لأن يمثل الجيب الاستيطاني

الصهيوني استثناء لهذه القاعدة التاريخية العامة. ولا بد أن انتفاضة الأقصى قد رسخت هذا الإدراك.

تعريف الصهيونية: الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة والمهوّدة

بعد أن بينا عجز المقدرة التفسيرية للتعريف الغربي والصهيوني للصهيونية، وبعد أن تناولنا العناصر المكونة والخلفية التاريخية والثقافية للصهيونية، وبعد أن تناولنا أهم سماتها، وبعد أن صنفنا الصهيونية باعتبارها شكلا من أشكال الاستعمار الاستيطاني الإحلالي، أعتقد أنه من حقنا أن نطرح تعريفنا للصهيونية، ولكن بدلا من طرح تعريف «جامع مانع» في عدة كلمات نطرح ما نسميه «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة» و«الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهوِّدة».

١- الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة:

الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة تحتوي على العناصر الأساسية المكونة للصهيونية بغض النظر عن الديباجات والاعتذاريات المستخدمة، ويمكن تلخيص هذه الصيغة فيما يلي:

أ ـ تذهب الفكرة الصهيونية الغربية إلى أن اليهود شعب عضوي منبوذ غير نافع (جماعة وظيفية بلا وظيفة)، يجب نقله خارج أوروبا ليتحول إلى شعب عضوي نافع.

ب ـ يتم توسيع نطاق مفهوم الشعب العضوي المنبوذ ليسمى «الشعب اليهودي ككل» الذي يضم خليطًا غير متجانس دينيًا أو عرقيًا أو ثقافيًا من المتدينين والعلمانيين، والشرقيين والغربيين، والصهاينة وغير الصهاينة.

ج ـ يُنقل هذا الشعب إلى أي بقعة خارج أوروبا (استقر الرأي ـ في نهاية الأمر ـ على فلسطين بسبب أهميتها الاستراتيجية للحضارة الغربية) ليوطن فيها، وليحل محل سكانها الأصليين، الذين لا بد أن يتم إبادتهم أو طردهم على الأقل (كما هو الحال مع التجارب الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية المماثلة).

د ـ يتم توظيف هذا الشعب داخل إطار دولة ستسمى «الدولة اليهودية»، وهي في واقع الأمر دولة وظيفية تعمل لصالح العالم الغربي الذي سيقوم بدعم هذه الدولة ماليًا وسياسيًا وعسكريًا، ويضمن بقاءها واستمرارها.

وهذه الصيغة الشاملة لم يفصح عنها أحد بشكل مباشر، إلا بعض المتطرفين في بعض لحظات الصدق النماذجية النادرة، ولكن عدم الإفصاح عنها لا يعني غيابها؛ فهي تشكل هيكل المشروع الصهيوني والبنية الفكرية التي أدرك الصهاينة الواقع من خلالها.

ولم تظهر الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كاملة بين يوم وليلة، وإنما ظهرت بالتدريج، وكان يضاف لكل مرحلة عنصر جديد إلى أن اكتملت مع صدور وعد «بلفور»، وتحولت إلى الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. والواضح أن الصيغة الأساسية تضرب بجذورها في الحضارة الغربية، وهنا نعرض لتاريخ تشكلها واكتمالها:

أ ـ تضرب الصيغة بجذورها في موقف الحضارة الغربية من الجماعات اليهودية وفي وضعهم داخلها، وهو موقف صهيوني ومعاد لليهود في آن واحد ـ أو صهيوني لأنه معاد لليهود ـ فاليهود شعب مختار عضوي متماسك (شعب شاهد ـ جماعة وظيفية)، ووجوده في مجتمع ما ليس له أهمية في حد ذاته، وإنما بمقدار ما يخدم الوظيفة الموكلة إليه، وحين يفقد الشعب وظيفته، لا بد من التخلص منه عن طريق نقله (أو ربما إبادته). ومن هنا، فإن نقطة الانطلاق (الشعب العضوي المنبوذ) هي الرقعة المشتركة بين معاداة اليهود والصهيونية، وهي صيغة خروجية تصفوية؛ إذ تطالب بإخراج اليهود من أوروبا وتصفيتهم؛ فالعنصر الأول بشقيه هو جوهر عداء اليهود، وهو أيضا المقدمة الأساسية للصهيونية.

ب ـ وأضيف لهذه الصيغة العنصر الثاني (الكامن تاريخيًا وبنيويًا في العنصر الأول) وهو اكتشاف نفع اليهود، ومن ثمَّ إمكانية توظيفهم خارج أوروبا (وإصلاحهم). وقد اكتشف هذا الجزء أن تم تأكيده ابتداء من القرن السابع عشر، عصر ظهور الرؤية المعرفية الإمبريالية، ويلاحظ أن ما يميز الصهيونية عن معادا اليهود هو هذا الجزء؛

فكلاهما يرى اليهود عنصرًا غير نافع يوجد داخل الحضارة العربية، ولكنه لا ينتمي إليها، ولا حل للمشكلة إلا بإخراج اليهود. وبينما يلجأ أعداء اليهود إلى إخراج اليهود بشكل عشوائي عن طريق طردهم أو إبادتهم دون تخطيط أو ترشيد فإن الصهاينة يرشدون العملية كلها، ويرون إمكانية إخراج اليهود بشكل منهجي وتحويلهم إلى عنصر نافع. كما يلاحظ أن مكونات هذين العنصرين (المنبوذين النافعين الذين يمكن توظيفهم) هي ذاتها السمات الأساسية للجماعة الوظيفية. ومن ثمَّ، فإن اكتشاف نفع اليهود كان أمرًا متوقعًا؛ إذ إن ذلك لصيق ببنية الجماعة الوظيفية، وهو سر وجودها وبقائها؛ إذ إنها لا يمكن أن يكتب لها البقاء في مجتمع إلا إذا كانت «نافعة»، و«تلعب دورًا ضروريًا».

ج ـ تظل الصيغة الصهيونية حتى نهاية القرن التاسع عشر مجرد فكرة، ولكنها تتحول إلى حركة منظمة بعد مرحلة «هرتزل» و«بلفور»، ومضمونها أن يتم التوظيف من خلال دولة وظيفية على أن تشرف على العملية إحدى الدول الاستعمارية الكبرى في الغرب التي تؤمن للمستوطنين موطئ قدم، وتضمن بقاء واستمرار الدولة الوظيفية الاستيطانية.

ومع وعد بلفور يصبح المكان الذي ستُقام فيه الدولة الوظيفية هو فلسطين، وتتحول الصيغة الأساسية إلى الصيغة الشاملة.

ولنا أن نلاحظ أن المفهوم الكامن وراء الصيغة الأساسية الشاملة في الصهيونية الغربية مفهوم محوري في الحضارة الغربية؛ فلم يتم إدراك اليهود وحدهم من خلاله، وإنما تم إدراك كل المنحرفين اجتماعيًا؛ فمثلا كان يتم نقل المساجين إلى أستراليا وتوظيفهم هناك بحيث يتحولون إلى عناصر صالحة وأعضاء في الحضارة التي نبذتهم ونقلتهم.

٢- الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهوَّدة:

تقوم الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة بعلمنة اليهود تمامًا وتحويلهم إلى أقصى حد، وتجعلهم عنصرًا نافعًا ومادة متحوله تستخدم وتوظَّف، وهي أيضًا تُعلمن الهدف

من نقلهم والوسيلة التي سينقلون بها والأرض التي سينقلون إليها. وليس من السهل على المرء قبول أن يتحول إلى وسيلة وأن ينقل كما لو كان شيئًا (لا قيمة له) من وطنه إلى أرض أخرى (أي أرض). ولذا نجد أن المقدرة التعبوية للصيغة الشاملة تكاد تكون منعدمة؛ إذ إنها تفترض أن ينظر اليهود إلى أنفسهم بشكل موضوعي نفعي، وأن يقبلوا أن يتحركوا من أوطانهم إلى أماكن أخرى لخدمة الحضارة الغربية التي تنبذهم وتناصبهم العداء، وهذا أمر مستحيل بطبيعة الحال. ولذا تم تطوير «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة» لتصبح «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهودة».

تتفق الصيغتان الشاملة والمهوَّدة على «الفعل» الاستعماري الاستيطاني الإحلالي؛ أي نقل كتلة بشرية من الغرب إلى فلسطين لتحل الكتلة الوافدة محل السكان الأصليين، ولكن يغطي هذا الفعل سحابة كثيفة من الديباجات؛ فاليهود ـ حسب التصور الغربي ـ يشكلون مادة استيطانية استعمالية، وحسب الرؤية الغربية هم «شعب عضوي منبوذ» لا بد أن ينقل من أوطانه إلى فلسطين، وهم حسب الديباجة الغربية «شعب إسرائيل الذي لا يستقر في مكان؛ فهو إما في حالة خروج، أو في حالة انتظار الخروج».

تنطلق الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهودة من كل هذه العناصر، ولكنها تقوم بإسقاط ديباجات الحلولية الكمونية (التي تلغي الحدود بين الإله والأرض والشعب، وتخلع القداسة على كل ما هو يهودي) على الصيغة الشاملة بحيث يتحول اليهود من شعب عضوي منبوذ، ومن مادة نافعة إلى كيان إنساني له هدف وغاية ووسيلة ورسالة، وتجعل عملية نقله مسألة ذات أبعاد صوفية أو شبه صوفية نبيلة؛ فالشعب العضوي المنبوذ في الديباجة الصهيونية يصبح «الشعب المقدس المشتت» والوطن الأصلي هو «المنفى» أما فلسطين فتصبح «أرض الميعاد».

ثم تتنوع الديباجات الصهيونية بتنوع التيارات الصهيونية المختلفة:

أ – الشعب العضوي المنبوذ، له حقوق مطلقة في أرض فلسطين (إرتس يسرائيل) بسبب صلته العضوية المستمرة بهذه الأرض الصهيونية الإثنية العلمانية، أو لأنها مقدسة

مثل الشعب المقدس (الصهيونية الإثنية الدينية) أو لأنها الأرض الوحيدة التي يمكن أن يقف فيها الهرم الطبقي اليهودي المقلوب على قاعدته (الصهيونية العمالية). وهي الأرض الوحيدة التي تصلح للخلاص (المشيحاني أو الاشتراكي أو الليبرالي)، فهي «أرض الميعاد» الإثنية الدينية أو العلمانية، بل إن خلاص الشعب هو خلاص الأرض، وهو نفسه مشيئة الإله.

ب ـ لا يُنبذ الشعب العضوي اليهودي بسبب أنه جماعة وظيفية فقدت دورها ـ كما تبين بعض الدراسات السوسيولوجية التاريخية ـ ، أو لأنه قاتل المسيح ـ كما تدعي الحضارة الغربية ـ ، وإنما لعدد من الأسباب تتغير بتغير صاحب الديباجة؛ فالشعب اليهودي شعب مقدس مكروه من الأغيار في كل زمان ومكان بسبب قداسته (الصهيونية الإثنية الدينية) ، أو بسبب تركيبه الطبقي غير السوي (الصهيونية العمالية) ، أو لأنه شعب ليبرالي عادي يود أن يكون مثل كل الشعوب، خصوصًا الشعوب الغربية (الصهيونية السياسة). ومهما اختلفت الأسباب، فإن هذا الشعب ينظر إلى نفسه فيرى كيانًا عضويًا مطلقًا له قيمة إيجابية ذاتية (بل يجد أنه المطلق وموضع الحلول).

ج ـ الهدف من نقل هذا الشعب ـ أعضاء الجماعات اليهودية في مصطلحنا ـ ليس التخلص من اليهود أو تأسيس دولة وظيفية تقوم على خدمة الغرب ـ كما هو الحال في التصور الغربي ـ ، وإنما هو إصلاح الشخصية اليهودية وتطبيعها وتأسيس دولة اشتراكية تحقق مُثل الاشتراكية (الصهيونية العمالية) أو الاستجابة للحلم الأزلي في العودة وتحقيق رسالة اليهود الإلهية، وتأسيس دولة تستند إلى الشريعة اليهودية (الصهيونية الدينية)، أو تحقيق الهوية اليهودية وتأسيس دولة يهودية بالمعنى العلماني تكون بمنزلة مركز روحي وثقافي ليهود العالم (الصهيونية الإثنية العلمانية) أو تحقيق مثل الحرية وتأسيس دولة ديموقراطية غربية (الصهيونية السياسية).

د ـ آليات الانتقال ليست الاستعمار الغربي أو العنف أو الإرهاب ـ كما هو معروف لكل من درس تاريخ المستوطن الصهيوني ـ ، وإنما هي «القانون الدولي العام» متمثلا

في وعد بلفور ـ حسب الديباجة الصهيونية السياسية ـ ، أو «تنفيذاً للوعد الإلهي والميثاق مع الإله» ـ حسب الديباجة الدينية ـ أو بسبب قوة اليهود الذاتية ـ حسب الديباجة الصهيونية التصحيحية – .

ولكن مهما كانت الديباجات، فالنتيجة النهائية دائمًا واحدة، وهي تحويل اليهود إلى مستوطنين صهاينة وطرد الفلسطينيين من وطنهم وتحويلهم إلى لاجئين. وعلى هذا فإن عملية نقل اليهود من المنفى ـ أي العالم الغربي ـ إلى فلسطين ـ سواء بسبب الوعد الإلهي أم بسبب وعد بلفور ـ تؤدي إلى نقل الفلسطينيين خارج وطنهم إلى المنفى.

وقد اتجهت الصيغة المهودة لقضية يهود الغرب المندمجين في مجتمعاتهم والذين لاينوون ـ لعدة أسباب خاصة بهم ـ الانتقال إلى أرض الميعاد الاشتراكية أو الرأسمالية أو اليهودية، فقبلت قرارهم هذا نظير تلقي دعمهم والتفافهم حولها على أن تلزم الحركة الصهيونية الصمت تجاه فضيحة الصهاينة الذين لا يهاجرون ـ أي أن الصهيونية الاستيطانية الحقيقية لزمت الصمت تجاه الصهيونية التوطينية الزائفة.

لكل هذا أصبح من السهل التحالف بين الدينيين والعلمانيين؛ فالجميع يتفقون على قداسة الشعب ورسالته (ومطلقيته)، ويختلفون حول مصدر القداسة وتجلياتها. ورغم كثافة الديباجات وإغراقها في الحلولية تظل الثوابت كما هي، وتظل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كما هي. والأهم من هذا تحولت الصيغة الصهيونية من صيغة غربية موضوعية خارجية تعرضها الحضارة الغربية على الجماعات اليهودية إلى صيغة يهودية داخلية يستبطنها أعضاء هذه الجماعات، ويدافعون عنها كما لو كانت صيغة يهودية خالصة، وتحقيقًا لرؤى الأنبياء والوعد الإلهي، ولا علاقة لها بموازين القوى السياسية أو الدولية أو محاولة الهيمنة الاستعمارية على الشرق العربي.

وقد طور هرتزل الخطاب الصهيوني المراوغ الذي فتح الأبواب المغلقة أمام كل الديباجات اليهودية المتناقضة، والتي غطت ـ بسبب كثافتها ـ على الصيغة الأساسية الشاملة، وأخفت إطارها المادي النفعي حتى حلت ـ بالنسبة لأعضاء الجماعات

اليهودية في الغرب بل وبالنسبة لمعظم قطاعات العالم الغربي ـ محل الصيغة الأساسية الشاملة.

ويلاحظ أن كثيرًا من الأسس التي تستند إليها الصيغة الشاملة والمهودة قد اختفى بفعل التطورات التاريخية. فيهود العالم الغربي قد تناقص عددهم واندمجوا بشكل شبه كامل في مجتمعاتهم، ولم يعد هناك مجال للحديث الغربي المعادي لليهود عن «عدم نفعهم». كما أن عملية نقل اليهود ونفي العرب اكتملت معالمها إلى حد كبير، خصوصًا وأنه بعد تأسيس الدولة أصبح «نقل» اليهود عملية «هجرة» تتم في ظلال قانون «العودة» الصهيوني الإسرائيلي . وبعد استقرار الدولة الصهيونية ونجاحها في التوسع والهيمنة تراجعت الديباجات اليهودية ـ إلا بين المتطرفين الدينيين – ، وحلت محلها ديباجات برجماتية مثل «قبول الأمر الواقع»، «الموازين الدولية»، «ضم الأراضي بسبب المشكلة الأمنية ـ وليس الوعد الإلهي ».. إلخ ولم يعد معظم الصهاينة يتحدثون عن «الشعب المختار»، وإنما عن احتياجات المستوطنين الصهاينة للمياه والأسواق العربية والعولمة، وعن إنجازات إسرائيل الاقتصادية والعسكرية.

التيارات الصهيونية الأساسية

أشرنا من قبل إلى تنوع الديباجات والاعتذاريات والتبريرات المختلفة المتناقضة المتضاربة، ولكنها تجمعها الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة، وهي تصلح أساسًا لتصنيف التيارات الصهيونية الأساسية بين اليهود:

١– الصهيونية السياسية (التي يقال لها ديبلوماسية):

كان دعاة هذه المدرسة من اليهود المندمجين في الحضارة الغربية الذين فقدوا علاقتهم بموروثهم الثقافي والديني، ولا يكنون أي احترام للموروث الديني الثقافي للجماعات اليهودية في شرق أوروبا. ويؤمن دعاة هذا الاتجاه بأزلية العداء لليهود، وأنه لا حل للمسألة اليهودية إلا بخروج اليهود من أوطانهم ليؤسسوا دولة مقصورة عليهم.

ولم يهتم دعاة هذا التيار بالتوجه الديني أو الثقافي لهذه الدولة أو شكلها الأيديولوجي ـ اشتراكية كانت أم رأسمالية، فاشية أم ليبرالية ـ ؛ فقد كان همهم الأكبر هو تخليص أوروبا من يهودها. ومع هذا يمكن القول بأن معظم المنتمين لهذا الاتجاه يظهرون تعاطفًا نحو الاقتصاد الحر الذي اكتشف أن الرؤية الصهيونية لا يمكن وضعها موضع التنفيذ من خلال قوة اليهود الذاتية، وأنه لا مناص من الاعتماد على الدعم الإمبريالي الغربي، وهذا هو الذي كان يعنيه بقوله: «بمساعدة القانون الدولي العام». فالقانون الدولي في الخطاب الغربي كان يعني «القانون الغربي» وكلمة «الديبلوماسية» التي توصف بها الصهيونية السياسية تعني في واقع الأمر «الاستعمارية».

ويمكن القول بأن الصهيونية السياسية هي صهيونية ذات اتجاه توطيني على الرغم من وجود أحزاب تمثلها داخل المستوطن الصهيوني.

٢- الصهيونية الاشتراكية أو العمالية (أو ذات الديباجات الاشتراكية أو العمالية):

الصهاينة الاستيطانيون هم هؤلاء اليهود الذين يذهبون إلى فلسطين، فيغتصبون الأرض من أهلها، ويطردونهم منها، ويمنعونهم من العمل فيها؛ ولذا فواقع وجودهم الذي يستند إلى الاغتصاب والإرهاب والعنف، يملي عليهم تبني أشكال من التنظيم العسكري والاجتماعي والاقتصادي يستحيل البقاء دونها، والصهيونية التي يُقال لها «اشتراكية» هي تعبير عن هذا الوضع؛ إذ تذهب إلى أن المستوطنين عليهم أن ينظموا أنفسهم داخل مؤسسات مقصورة عليهم يقال لها «اشتراكية» تأخذ شكل مزارع جماعية لا تعرف الملكية الخاصة أو تقلص نطاقها، وتشكل اتحادات عمالية تستبعد العمال من السكان الأصليين.

وما لا تذكره أدبيات الصهيونية الاشتراكية إلا لمامًا هو أن جماعية التنظيم مسألة لا علاقة لها بفكرة العدالة الاجتماعية، وإنما هي مسألة تنظيمية حتمية تتطلبها المواجهة المستمرة مع السكان الأصليين. ومن المعروف أن معظم التجارب الاستيطانية الأخرى ـ التي لا علاقة لها بأي فكر اشتراكي ـ لجأت إلى التنظيم على أسس جماعية؛ فالجماعية

هنا تعبير عن عسكرة مجتمع المستوطنين الذي لا بد أن يدافع عن نفسه ضد المسحوقين والمطرودين.

وقد طرح الصهاينة الاشتراكيون مفاهيم أخرى مثل مفهوم «غزو الأرض» و«العمل والحراسة» و«الإنتاج»، والذي يعني ببساطة ـ أن اليهودي طالما كان لا يزرع الأرض التي استولى عليها ولا يحرسها بنفسه فإنها ستؤول إلى العرب مرة أخرى؛ ولذا فلا بد من اقتحام الأرض عنوة واستبعاد العرب من العمل عليها وتأسيس بنى اقتصادية مستقلة في عمليات الإنتاج والاستهلاك، لا يوجد داخلها سوى المستوطنين الصهاينة. والصهيونية ذات الديباجة الاشتراكية هي التي قامت بوضع أسس الجيب الاستيطاني؛ فهم الذين قاموا بتأسيس المنظمات العسكرية الصهيونية المختلفة (الهاجاناه الباماخ) والمؤسسات الاقتصادية الانعزالية التي قامت باقتلاع العرب واستبعادهم من العملية الإنتاجية (الكيبوتس، الموشاف، الهستدروت) وهي التي أعلنت استقلال الدولة، وظلت تحكم الدولة الصهيونية حتى عام ١٩٧٧ حينما نجح «بيجين» في الانتخابات.

٣- الصهيونية الثقافية والدينية:

يذهب كل من الصهاينة الثقافيين والدينيين إلى أن اليهود شعب متماسك مرتبط ارتباطًا عضويًا بفلسطين، وله حقوق مطلقة فيها. وبينما يرى الدينيون أن وحدة هذا الشعب اليهودي وحقوقه المطلقة نابعة من الوعد الإلهي واختيار الإله له ـ يرى الثقافيون أنها تنبع من ذاته هو، ولذا فالتراث الديني بالنسبة للصهاينة الثقافيين هو تعبير عن الوعي اليهودي، وشيء من قبيل الفلكور. ورغم الاختلاف في تحديد مصدر الاختيار فإن الاتجاهين يتفقان في الأساسيات.

ويلاحظ أن الصهيونية الثقافية والدينية تغطي ما يسمى «منطقة الوعي والهوية»، ولا علاقة كبيرة لهما بعالم السياسة والاستيطان، ولذا يمكن أن يكون الصهيوني الاستيطاني أو التوطيني صهيونيًا ثقافيًا أو دينيًا. وانقسام المستوطن الصهيوني لعلمانيين ومتدينين هو تعبير عن الانقسام بين دعاة الصهيونية الثقافية ودعاة الصهيونية الدينية.